إقامة تجار الجملة الأجانب في خانات حلب

جان كلود داڤيد

تعريب: غادة الحسين

ينصب هدفي على تبيان قدرة هذا النمط من المباني على التحول الجذري عبر تطوير وظائفه المرتبطة بوجود أجنبي. لقد كانت الخانات في حلب منذ القرن السادس عشر الميلادي حتى العقود الأولى من القرن العشرين مكاناً للسكن الدائم (والذي كان ضرورياً حتى القرن التاسع عشر) للتجار الأوربيين الذين كانوا يشكلون مجتمعاً صغيراً يلتف حول القناصل وأبرشيات البعثات الدينية.

في الواقع، لقد تلاءم هذا النموذج المعماري، لكونه مرتبطاً بالنشاطات والمحطات التجارية، مع سياق جديد وهو الخانات. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر أصبح هذا النموذج بسبب شبهه بها مرجعاً للعمارة المحلية الجديدة، وانتقلت تأثيرات ثقافية ونماذج أخرى عن طريق التجارة، أثرت على نمط الحياة والسلوك والأفكار أيضاً التي تركت آثاراً تتجلى حالياً بالحداثة التي تميز عصرنا الراهن[١].

تتأتى أهمية هذا التطور المعماري في حلب بشكل خاص، من دورها التجاري الاستثنائي من جهة، ولكثرة عدد التجار نسبياً الذين مارسوا نشاطات فيها خلال عدة قرون من جهة أخرى، فبينما دمشق لم تعرف هذا النوع من التطور كونها محافظة أكثر ولايوجد فيها تمثيل لقنصليات أجنبية، وقد بقيت خاناتها متواضعة بشكل عام ولم تطرأ عليها التحولات التي أصابت نظيراتها في حلب.

وحسبما ذكر المؤرخ سوڤاجيه فإن حلب الواقعة على طريق الحرير، كانت إحدى أهم المراكز التجارية في الامبراطورية العثمانية حتى القرن السابع عشر ثم نافستها كل من مدينتي اصطنبول وسميرن. لقد كانت حلب وحتى القرن الثامن عشر تصدّر أكثر مما تستورد ولهذا كانت تجارتها متوازنة لا بل تفيض عن حاجتها. حيث كانت تصدر للغرب بشكل خاص القطن والصوف وصوف الشيفوت / شعر الماعز والعفصة والبهارات، والجلد الناعم (المغربي)، وأيضاً صدرت منتجات مصنعة منها على وجه الخصوص النسيج. لقد كانت حلب إحدى المراكز الرئيسية في الامبراطورية العثمانية التي تعمل في الحرير، ولكنها خصصت منتجاتها البسيطة والفاخرة للزبائن المحليين والاقليميين في كل أنحاء الامبراطورية، وبالتحديد العاصمة وهذا بالرغم من تنافسها مع بورصة.

ومما يفسر أهميتها من جهة هو بناء أماكن تجارية واسعة ذات طابع معماري وظيفي وفاره في آن واحد، كالأسواق والخانات منذ أواخر العصر المملوكي وحتى القرن الأول من العصر العثماني، ومن جهة أخرى التواجد الأجنبي وعلى وجه الخصوص الفرنسيين والانكليز والهولنديين والايطاليين.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

منذ أن وقّع كل من الفرنسيين في عام ١٥٣٥م والانكليز في عام ١٥٨٠م والهولنديين عام ١٦١٢م الاتفاقيات التجارية مع الباب العالي (السلطان)، وحصلوا على الامتيازات، أقام التجار الأوروبيون في معظم مرافيء الشرق، في خاناتها كونها أمكنة تجمع للنشاطات التجارية، ومغلقة بحيث تؤمن الحماية والانعزال. وطابع عمارتها خليوي ومتكرر معد لتجاور أكبر عدد من الوحدات الصغيرة المتشابهة الشكل. لقد حوّل التجار الأجانب هذه الأمكنة المفيدة الى سكن له طابع الآبدة، مظاهره مميزة ومختلفة عن المنزل المدني التقليدي ذو الساحة الداخلية. لقد أظهر الوصف القديم وبالتحديد وصف الطبيب الانكليزي روسل في منتصف القرن الثامن عشر، أن هذا السكن اكتسب معظم ملامحه في ذلك العصر، ففي أواخر القرن التاسع عشر تحولت عشرات الخانات الكبيرة في مدينة حلب بشكل كلي أو جزئي، وشغلت فيها عشرات الوحدات السكنية الواسعة والمعقدة.

وارتبط أصل هذا النموذج المعماري وصيرورة تحولاته وتغيره، وأخيراً أسباب تبني هذا النمط من السكن من قبل نخبة من السكان المحليين الذين أخذوا بتبني المفاهيم الغربية في أواخر القرن التاسع عشر، بخصائص «أرستقراطية الخانات»، وهي مجتمع القناصل والتجار الأجانب وتستند مقاربتنا هذه على خطوتين متوازيتين:

أولاً: تحليل معماري للأبنية التي ماتزال موجودة في حلب، يستند على كشوف معمارية وأبحاث كنت قد أجريتها ميدانياً منذ عدة سنوات مع المعماري تيري كراندان.

ثانياً: دراسة تاريخية لهذا التحول وللمجتمع الذي أنجزه.

والمصادر المستخدمة هي كتاب «التاريخ الطبيعي لحلب» للكاتب أليكساندر روسل وهو طبيب انكليزي أقام في حلب في منتصف القرن الثامن عشر، ووثائق مذكورة قدمها كل من المؤرخ جان سوفاجيه(٣) وفرانسوا شارل رو(٤).

الخانات التي شاهدها أ. روسل في عام ١٧٥٠:

لقد وصف روسل بشكل دقيق صيرورة تحول الخانات الى شقق، وقد ذكر عدداً من السمات الأساسية لهذه العمارة. بدأ بوصف الشكل الأصلي للخان «فقد خُصص الطابق الأول لاستقبال المسافرين الذين يستأجرون الغرف بسعر زهيد» (جزء ١, ١٨). «يوجد في الطابق الأول ممشى مفتوح يوصل الى صف من الغرف» (جزء ١٠, ١٨) «الإضاءة في معظم هذه الشقق أقل منها من الطابق الأرضي الذي تندر فيه النوافذ في الخلف أما السجاد فكان هو الأثاث الأساسي في الخانات» (جزء ١, ١٨-١٩).

وقد وصف روسل أيضاً الإقامة المحدودة لبعض التجار الحلبيين: «يستأجر التجار الحلبيون هذه الدور والتي يفضلونها لأنها آمنة وموقعها ملائم للتجارة فهي مجاورة للمواقع التجارية. لذلك فهم يؤمونها منذ الصباح حتى صلاة بعد الظهر قبل أن يعودوا الى منازلهم، ويأخذون فيها غرفة صغيرة ذات أثاث بسيط» (جزء ١, ١٩)

كما وصف منازل الأوروبيين بأنها وحدات مستقلة «منازلهم واسعة وعملية حيث يشغل المنزل نصف وأحياناً كامل جانب مربع المساحة. الرواق مسقوف، ونوافذه كبيرة على النمط الأوروبي تفتح على الساحة. أما الأرضيات فهي مبلطة بالحجر والمرمر. الشقق واسعة ومفروشة أيضاً المكاتب التجارية في الطابق الأرضي» (جزء ١, ١٩-٢٠).

وأصبح الممشى هو العنصر الأساسي في تنظيم الحيز السكني لأنه لم يعد مساحة دائرية جامعة، مساحة شبه عامة، مستمرة ومحيطية، مفتوحة بشكل واسع على الساحة بأقواس، بل أصبح مساحة داخلية للتوزيع ضمن شقة، ولم يعد فسحة جانبية بالنسبة للساحة وبالنسبة لمجموعة الحجرات التي تفضي إليه، بل أصبح مساحة محورية بفضل القيام بعدة حيل تنظيمية وخاصة في التوزيع وشكل الفتحات المتناظرة على طرفي الممشى بحيث تكون أبواب ونوافذ الغرف مواجهة للنوافذ المفتوحة على الساحة حتى الجانب الآخر.

وأما التغير الثاني والمميز الذي وصفه روسل هو معالجة الأرضيات، حيث استعيض عن البلاط الخشن والبسيط المتواتر التكرار، ببلاط آخر أملس ومرمر أكثر نقاوةً وجمالاً. وكانت الرسومات على المرمر عبارة عن مربعات ورسومات وأشكال هندسية تدل على المركزية وانغلاق الغرفة وعلى تنظيمها الذاتي. وتم إلحاق قسم من الممشى الذي كان معزولاً بشكل كامل عن باقي النمط التكراري والمتصل للخان.

والسمة الثالثة التي لاحظها روسل هي أهمية الديكور والأثاث فقد كانت المفروشات في الأماكن الحلبية «بسيطة»، بينما كانت المفروشات في منازل الأوروبيين «أنيقة».

المنزل القنصلي هو مكان للحياة «خارج الوطن»:

أولاً يجب إدراك الضعف النسبي للوجود الأوروبي في مرافىء الشرق، وفهم الطابع المنغلق لنمط حياتهم. فقد ذكر أن عدد الانكليز في حلب في القرن الثامن عشر كان خمسة عشر وعدد الفرنسيين ضعفي أو ثلاثة أضعاف هذا العدد[٥]. وكان تحت حماية الفرنسيين عدد من أعضاء الطوائف الدينية :لقد أقام بعض اليسوعيين في خان الفرنسيين وبخاصة أربعة عشر فرنسيسكانياً، كان لديهم دير وكنيسة في خان شيبانة والذي اختاروه منذ وصولهم[٦]، أما الهولنديون فقد مثلهم شخص واحد هو قنصل وتاجر في آن معاً. وكان معظم القادمين من ڤينيسيا وتوسكانا من اليهود ولديهم بيوت تجارية في الخانات، ولكنهم يسكنون في الحي اليهودي وتأقلموا مع العادات ونمط الحياة المحلي.

وبالإجمال فإن مجموع التجار الأجانب كان لا يتجاوز عدة أشخاص في القرن الثامن عشر. أما السكن القنصلي الفرنسي منذ عام ١٥٦٢ فكان في خان الجمرك (الشكل١)، وفيما بعد انتقل الى خان الحبال، حيث كان السكن عبارة عن عالم صغير يمثل مجتمعه بشكل رسمي في إطار منظم، بالاضافة الى أنه مكان تجري فيه أحداث الحياة اليومية المهنية والخاصة لكل من أعضائه. لقدوصف «شوفاليه دارفيو» في مذكراته، وقنصل آخر في عام ١٦٩٣م، بشكل دقيق المنازل القنصلية الفرنسية في القرن السابع عشر، بأنها عبارة عن مجموعة متنافرة ومنغلقة على نفسها تشمل الشقة الخاصة للقنصل ومساكن للتجار ورجال الدين وأماكن للعروض الرسمية والاجتماعية، مثل الصالة القنصلية، وهي غرفة واسعة تتسع لاستقبال تجار مرافىء الشرق وذات طراز فاخر وتضم صالةً مفروشة على الطريقة الأوروبية وأخرى على النمط الشرقي، وأخيراً الكنيسة القنصلية. أما العنصر المعماري الذي يربطها بعضها فهو رواق أي ممر داخلي ضمن جناح مدخل الخان، ويعتبر هذا الممر مساحة مشتركة بين مجموع السكان والمنزل القنصلي. ومما يسهل وصول الزائرين إليها أن نظامه شبه عام. ولقد اتبعت المنازل التقليدية الأخرى نفس الأسس وربما تكون أقل أو أكثر اتساعاً وفقاً لأهمية وغنى العائلة التي تقطنها[٧].

تحول المنزل القنصلي لسكن عائلي في القرن التاسع عشر:

تناقص عدد التجار الأوروبيين في مرافىء الشرق خلال القرن التاسع عشر، وأصبحت القناصل هيئات ذات طابع إداري. وقناصل الدول الكبرى مثل (فرنسة، المملكة المتحدة) كانوا من البلدان التي يمثلونها[٨]، بينما بالنسبة للآخرين، فقد تزايدوا شيئاً فشيئاً وكانوا تجاراً من أصول مختلفة،فقد شكلوا مع أحفادهم مجتمعاً جديداً في الخانات[٩].

وتبنت العائلات الكبيرة من التجار نمط السكن الذي تطور سابقاً في المنزل القنصلي، ولعبت دوراً هاماً في إنجاز وتكريس ونقل نموذج معماري خاص. ومن هذه العائلات عائلة ماركوبولي في حلب، أصلها من جزيرة كيو اليونانية، وعائلة بوش وأصلها من مقاطعة بوشير في تشكوسلوفاكية. وقدمت عدة عائلات على الأغلب من إيطالية، فينيسية ومن ليفرون ـ إيطالية. وعائلة بيكيوتو وعائلة سيلفيرا، وعائلة كابايا... الخ.. وبالاضافة الى الخانات التي تحولت منذ قرون إلى فقر طائفة أو الى نظام ديني. وظهرت خانات «عائلية». ففي نهاية القرن التاسع عشر سكنت عائلة ماركوبولي في ثلاث شقق وشغلت نصف طابق في خان علابية، بينما شغلت عائلة أخرى ربع الخان، وثم مدرسة كاثوليكية. وكذلك الأمر في خان النحاسين وخان البرغل حيث شغلت نصف الشقق فيهما عائلة بوش وبقيت فيه منذ عام ١٨١٩ حتى أيامنا.أما عائلة كابيه فقد شغلت النصف الثاني من خان النحاسين،أما خان الحرير فقد شغلته عائلة تعمل في الصرافة (ربما هي عائلة كابيه أيضاً). فيما تقاسمت عائلة بيكيوتو وآخرين جزءاً كبيراً من خان الجمرك مع عائلة ماركوبولي. وشغلت عائلة ڤيلكروز (أخ وشقيقان) خاناً أطلق عليه اسم عائلتهم، ويقع هذا الخان الى الشمال من خان الحرير الذي أعيد بناء جزء كبير منه في عام ١٨٦٧م[١٠] (الشكل٢).

إن هؤلاء الأجانب ليسوا غرباء تماماً، وقد صنفوا تحت اسم عام وهو« افرنجي »[١١]، والفرنجة نفسهم لا يمكن تعريفهم حسب انتماءاتهم الوطنية الخارجية المشتركة [١٢] فهم لا يشكلون مجتمع غربي (أجنبي) ضمن مدينة كما الأمر في مدينتي القاهرة أو الاسكندرية، ولكنه مجتمع ضمن وسط مستقل نسبياً والذي وصف بـ« اورستقراطية الخانات »، لقد شكلوا جزءاً من النظام العثماني السياسي والاقتصادي والاجتماعي مع أنهم لم يكونوا رعايا عثمانيين.

منزل ڤينسينزو ماركوبولي في خان العلابية هو نموذج مكتمل عن سكن الخانات : لقد سكن منذ القرن الثامن عشر أجانب في خان العلابية، كما يشهد على ذلك تاريخان، فقد سكنوا في عام ١٧٤٠م قرب الزاوية الجنوبية ـ الغربية منه وفي عام ١٧٧٠م في الزاوية الشمالية الشرقية منه. لقد قدم أندرياس ماركوبولي من مدينة كيو ـ إيطالية، واستقر في حلب في بداية القرن التاسع عشر. أما ولده ڤينسينزو فقد ولد في عام ١٨١٠م والتقى بخاله ليوناردو جوزتيسيناني (من مدينة كيو أيضاً) في مقر التجارة الذي أسس في حلب عام ١٨٣٦م. وكما ذكر الرحالة ف.أ. نيال الذي سكن في حلب بين الأعوام ١٨٤٢ و١٨٥٠م[١٣] فإن ڤينسينزو أصبح غنياً لدرجة أنه أعاد ترتيب خان العلابية (الشكل٣) على طريقته. وفي عام ١٨٤٦م كانت قاعدة الشرفة المخصصة لاعتماد الدبلوماسيين تحمل علامة النقد العثماني A.V. وربما أصابت بعض التفاصيل تغيرات فيما بعد، ولكن المنزل بمجمله حافظ على تنظيمه، وقد سكنته حتى عام ١٩٥٠م آلما ماركوبولي وهي حفيدة ڤينسيزو. لقد تم إتمام الكشف على المبنى الحالي بفضل عدة تحقيقات قام بها نزلاء سابقون في المنزل وبفضل تحليل الصور القديمة للمبنى[١٤].

لقد تمركزت غرف الإقامة جميعها في الطابق ما عدا بعض المنافع. يتم الدخول الى الخان في البداية عبر باب كبير محروس يغلق ليلاً، ونهاراً عند الضرورة. تقع الأدراج المؤدية الى الرواق على طرفي المدخل الواصل الى باحة الخان. في خان العلابية يوجد درج واحد يصل الى قرص درج حيث باب المنزل المصنوع من الخشب النافر.

ينفتح الباب على محور الرواق الكبير وهو مساحة مركزية مبلطة بمربعات من المرمر الأسود والأبيض. وتوجد قرب الباب عدة مقاعد مخصصة للحارس (قواص) وللزوار. أما وظيفة الأثاث إظهار الأبهة حيث توجد مفروشات ثمينة ومجموعة من التحف الفنية والأثرية والخزائن. وعلى الطرف المقابل قطرياً، فإن الرواق يفضي إلى ثلاث فتحات هي باب بين نافذتين، حيث يصل الى الصالة الكبيرة والتي يتعامد محورها مع محور الرواق. وحسب الصور المأخوذة عام ١٩٠٠م فإن أثاث هذه الغرفة المثلثة يجمع بين الأنماط الغربية والشرقية مثل الأرائك المصفوفة على طول هذه الغرفة.

كان للغرف الجانبية على طرفي الممشى وظائف خدمية، فالمكاتب التجارية معزولة في الطابق الأرضي. وتغيرت هذه الوظائف مع الوقت تبعاً لأنماط العائلة وتركيبها. حيث نجد في هذه الحالة صالة بلياردو ومكتبة وغرف نوم. وتقع غرفة الطعام بالقرب من المطبخ والمنافع المشتركة والتي تفضي بواسطة ممشى ثانوي، والذي يؤدي بدوره الى مطابخ وشرفات وحدائق خارجية. وإحدى هذه الغرف الواقعة بجانب الساحة مزينة بمظلة مهمتها المحافظة على الترتيبات النموذجية للسكن التقليدية، فهو مفتوح على الخارج من ثلاثة جوانب، حيث يمكن الجلوس على منصته التي تشبه الايوان في المنازل القديمة،وهو رمز للمحافظة على نمط من العلاقات « التقليدية ».

ومن وسائل الترفيه وجود شرفة مفتوحة على السماء وهي في فراغ الباحة، ومحاطة بدرابزون على النمط الايطالي مع حجر منقوش حول البئر. وأحواض من الحجر لزراعة الزهور. وقد جُهزت بعض الغرف بمدافىء من المرمر والكلس الناعم على النمط الكلاسيكي أو من عصر النهضة مصنوعة محلياً أو مستوردة من إيطالية.

أما التجهيزات الصحية فهي بشكل عام أكثر بساطة منها في المنازل التقليدية من نفس المستوى. حيث توجد دورة مياه واحدة، ولا يوجد حمام شرقي. ولم تُعرف غرفة الحمام الحديثة إلا متأخراً في هذا السكن. أما المطبخ فهو مجهز بمدختنين وبئر وخزان مياه.. الخ، مما يذكرنا بالمنازل المحلية. كما يمكن الوصول إلى الشرفات العليا بدرج مستقل، فلكل منزل شرفة مغلقة بجدران عالية للمحافظة على

الحميمية (حيث يمكن النوم فيها صيفاً). ويوجد باب أو عدة أبواب تسمح بالاتصال مع الشرفات المجاورة والشرفات المشتركة مع السوق والوصول من خان إلى خان دون النزول الى الأسواق والشوارع وفي منزل ماركوبولي برج مطل (مقصورة) ذات مستويين، بُنيا فوق أعلى طرف الرواق، أمام مدخل الصالة. المستوى الأول هو نوع من المنور له اثنتا عشرة نافذة مما ينشر الضوء الجميل في الرواق. وأضاف في عام ١٩٠٠م غرف مربعة مضاءة باثنتي عشرة نافذة عالية، مغطاة بشرفة بانورامية يمكن الوصول اليها بدرج خارجي.

وقد كانت منازل ماركوبولي في خان العلابية وفي خان الجمرك مسكونة حتى الحرب العالمية الثانية، وما بعدها. وكذلك منزل عائلة بوش في خان النحاسين وتم الحفاظ عليه. وأحياناً كان المنزل الثاني لعائلة بوش في خان البرغل. وتحولت كل منازل الخانات الأخرى خلال وقت قصير أو طويل في نهاية القرن التاسع عشر الى مدارس دينية أو الى مطاعم أو فنادق منذ الحرب العالمية الأولى وخلال الانتداب الفرنسي بالنسبة لمعظمها. وتم ترميم الممرات وفُتحت للسير وقسمت الى أماكن مستقلة واستعادت الخانات بنيتها الخليوية ونشاطاتها التجارية. إن نمط السكن في الخانات لم يختف فقد تم تقليده من قبل جزء من البرجوازية التجارية المحلية.

اختيار نموذج محلي لسكن جديد:

لقد تم بفضل عدة تجار كبار، كانت لديهم رغبة بإقامة حي جديد بالاتفاق مع البلدية، إدخال المدنيَّة الحديثة إلى حلب للمرة الأولى. فقد حصلوا على أرض واسعة بجانب الأحياء المسيحية القديمة التي قُسمت وأنشئت فيها الطرق منذ عام ١٨٦٩م، واتسمت العملية باختيار شبكة متعامدة ومنتظمة بلغ عرض الشوارع من ١٣ الى ١٦ متر في الطرق الرئيسية، في حين أنها نادراً ما تجاوزت ٥ أمتار في المدينة القديمة[١٦]. لقد كان اختيار نمط السكن هو العنصر الأساسي في العملية، وبني منزل حمصي حالياً (منزل عائلة توجر سابقاً) في نحو عام ١٨٩٠، ويعتبر أحد أبرز النماذج لهذا النمط الجديد من السكن[١٧]. فقد أقيم ضمن مقسم مستطيل مساحته أكثر من ١٠٠٠م^2. ويشغل البناء أكثر من نصف المساحة بقليل (٥٦٠م^2) ويقع على الجانب

الجنوبي حيث تركت في الشمال فسحة واسعة لباحة وفي الغرب فناء أضيق يصلح لحديقة. وهناك اختلافات جوهرية بينه وبين المسكن التقليدي، يقع البناء والباحة وخاصة الشقق في الطابق الأرضي كما في الخانات، فهي ليست مرتبطة بالباحة وغير موصلة إليها.

مدخل المنزل باب ثقيل، بشكل ممر للمشاة يفضي الى رواق صغير في محور درج أثري على اليمين، تعلوه قنطرة نصف اسطوانية. ويوجد على اليمين وعلى اليسار ممرات توصل الى الباحة والى غرف الطابق الأرضي. كما يفضي الدرج الى الشقق الموجودة في الطابق، في حين أن الطابق الأرضي مقبب بأكمله ومزين قليلاً ويشتمل على منافع. يوجد مستودعات واسطبلات ومخازن وأماكن خاصة للقناصل في الممشى الجنوبي المفضي الى الشارع الرئيسي. أما الجزء الشمالي فيطل على الباحة ويمكن المرور إليه من المدخل الرئيسي عبر رواق ومن الطابق عبر درج. وهذا الجزء يشمل المطابخ ومخازن الطعام والأقبية وأمكنة للخدم وإيوان، هو عبارة عن غرفة صغيرة مقببة مفتوحة على الباحة من جهة الشمال، وهي الأثر الوحيد المعبر المتبقي من المنزل التقليدي[١٨]. وقد زُينت الباحة بحوض وبـ (سبيل) من جهة الإيوان، وبمزروعات مثل (شجر الخبب، والورود) في محوره المتعامد. كما في المنازل القديمة فإن الباحة تصلح للإقامة في الصيف وللمتعة أيضاً.

لقد نُظم الطابق حول رواق - عرضه ٤٫٩٠ متر وطوله ٧٠٫٥م (٧٧م^2)، يفضي مباشرة الى صالة الطعام والى صالة صغيرة وعشر غرف من الطرفين وصالة كبيرة في المحور مثل منزل ماركوبولي في خان العلابية. إن الرواق هو مساحة رئيسية داخلية ومحور المبنى وسطحه أعلى من الغرف الجانبية التي يفضي اليها، وهو مضاء بنوافذ عالية. وتطل واجهات الغرف على الرواق وهي مشابهة للواجهات الخارجية ولكل واحدة منها باب محوري ونوافذ (تغيرت فيما بعد). وهو مساحة مفروشة وظيفتها غير واضحة؛ أهي للانتظار أم لعرض القطع الفنية أم هي - أساساً - مكان للعرض ولإظهار الأبهة، وقد تكون مساحة للتوزيع على وجه التحديد. لقد استُبدلت باحة المنزل التقليدي في جزء من وظائفها، ولكن بمساحة ذات شكل مختلف تماماً.

فضاءات الحداثة: سياق التشكيل المحلي والاقتباس الخارجي:

لايوجد أية استمرارية ظاهرة بين هذا النمط الجديد للسكن وبين المنزل التقليدي الذي توقف عن التطور وغاب الجانب الابداعي المدني جزئياً فيه. إن هذا المسكن الحديث غريب جذرياً حتى وإن كان يحمل سمات محلية أو مقتبسة كالنموذج الذي ابتكره مؤسسو الحي الحديث في العزيزية. إن نجاحه وأشكاله العديدة المختلفة قبل التبني الحديث للنماذج الخارجية المنشأ، لم يكن من قبيل الصدفة، بل هو مسكن ذو منزلة متوسطة مقبولة محلياً.

وقد اختفت «القبة» وهي العنصر الأساسي في معالجة الفراغ التقليدي والفروق في مستوى مناسيب الأرض. فقد أصبحت الأرضيات في منزل الحمصي وفي كافة الخانات في نفس المستوى وأُلغيت القباب. أما الارتفاعات في الأرض فلم تستمر عموماً إلا في المظلات الزجاجية للواجهات (والتي رُممت فقط في أقدم مباني العزيزية)، والمطبخ والحمام. إن هذا التوحيد لموقع مستويات الأرض هو شكل معماري غربي، مما فرض استخدام الأثاث الغربي، وبالتالي تغيير في السلوك والمواقف ونمط الاتصال. لقد اختفت أو بُسّطت المبادئ الأساسية في المنزل التقليدي بالنسبة للجهات الأصلية (فغدا اتجاه الإيوان نحو الشمال).

إن إحدى السمات النادرة لهذه العمارة والتي قد تكون لها تطبيقات محلية هو الرواق في الخان لأنه نظام توزيع لمساحة رئيسية، فقد نُقل الرواق الى منازل العزيزية والجمَّالية والإسماعيلية، فهو مساحة قابلة للاستخدام. وتتغير وظيفته تبعاً لعهد البناء والشريحة الاجتماعية التي تشغله ودرجة تأثره وبنية وتركيب العائلة والمساحة المتوفرة. ومع محافظته على وظيفة التوزيع، يعتبر مكاناً للإعلام والتعريف ومساحة للتنقل بين العام والخاص. ويمكن أن يلعب وظيفة خاصة كصالة مثلاً، للاستقبال صالة جلوس أو طعام وبخاصة في المنازل المبنية حديثاً المتوسطة المساحة[٢٠]. ويرمز هذا الغموض في تعريف الرواق إلى نوع من عدم الرضى وإلى الصراع بين الأسلوب الموسوم بالتقليدية وبين المساحة المبنية، المعبرة عن مساحة اجتماعية ـ ثقافية، وهي إشارة للتطور والحداثة. وتقل أهمية هذا التباين في الأماكن الأكثر خصوصية في المنزل مثل الحمام ودورة المياه والمطبخ حيث تطورت أساليب وأشكال المساحات بشكل بطيء.

تظهر نقاط مشتركة بين المنازل ذات الصالة أو الرواق في سورية ومنازل ـ الصالات أو الفسحات في القاهرة، ومنازل ذات الصالة في اصطنبول والأناضول، ومنازل ـ الدار في لبنان، مما يدفعنا للتساؤل فيما إذا كانت إحداها تطورت في البداية وأثرت بشكل مباشر على الأنماط الأخرى. اذا كان هناك نموذج واحد هو أصل تشابهها.

لقد سمح لنا الوصف الذي قدمه روسل بالعودة الى القرن الثامن عشر لتاريخ هذا المسكن والأوساط القنصلية في حلب، وقد مكَّن التشابه بين هذا النمط وبالتحديد مع مخططات أول سفارة فرنسية في اصطنبول (والتي نفذت في نحو عام ١٦٣٢م) من وضع نظرية عن الأصل العثماني أو الاستنابولي لهذا النموذج. إن «المنزل العثماني الكبير» يشبه المنزل الذي أسست فيه السفارة الفرنسية في القرن السابع عشر، وهو على الأرجح من أصل بيزنطي وجد في اصطنبول قبل انتشاره في الشرق الأوسط عن طريق قنوات متنوعة واتصالات مباشرة بين القاهرة واصطنبول، وربما الى دمشق (كتنقلات التجار والموظفين بين القاهرة واصطنبول والعلاقات عن طريق الزواج، وفيما بعد تأصيل معماريين في مدرسة العمارة في اصطنبول) أو بواسطة الأوساط القنصلية الغربية الى حلب.. الخ[٢١]. لقد أوضحت مقارنة دقيقة للأعمال المحلية المختلفة تكرر تأثير عدة عهود مختلفة،الذي مرده وجود تنوعات اقليمية. فقد أدخلت على منزل البيروتي مثلاً في القرن التاسع عشر المبني على النمط العثماني تأثيرات إيطالية وبدورها أثرت على الشكل السوري للمنزل العثماني في حمص وحماة وحلب. لقد شكل مسكن الخانات في حلب وبالرغم من تطور نمطه المحلي جزءاً من النتاج المتوسطي بشكل عام والذي اتسم بالغزارة لفترة طويلة، وبخاصة في عهد الامبراطورية العثمانية.